لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩)
الإنسان الشاعر السياسي

د. سعاد محمد إبراهيم خضر
كلية الآداب – قسم اللغة الفرنسية

تمهيد..

قبل أن ندخل في الحديث عن " لامارتين "،من الضروري التحدث عن الرومنطيقية التي ميزت مسيرة أدب القرن التاسع عشر ليس في فرنسا فقط وإنما في أوربا كذلك .

نحـــن نعلم جميعا إن عصر التنوير في القرن الثامن عشر قد طور الفكر التحليلي الذي قـــام جاليلـــيو ونيوتن بتطويره فيما بعد وأدى ذلك إلى ظهور جيل من التواقين للحقيقة والعدالة والخرية. إنها نفس المفاهيم التي احتضنتها الثورة الفرنسية وأعطتها قوة القانون ولكن التطورات الدامـــية التـــي أعقبت الثورة الفرنسية، والانقلابات والثورات المتتالية ساعدت بدورها على محو الفكـــر الكفاحي الذي ساد البلاد آنذاك أمام طغيان فكر بونابرت العسكري وديكتاتوريته بل واكثر من ذلك فان خمسا وعشرين سنة من الحروب الفاشلة قد أدت إلى استعادة النظام الملكي الوراثي في حلف مقدس مع الرجعية.

وجـــاءت اللحظة الرومنطقية لتترجم الأزمة النفسية والفكرية السائدة في الميدان الثقافي لـــيس في فرنسا وحدها وإنما في أوربا كلها التي هزتها الثورة الفرنسية، وما رافقها من أحداث جسام.

وقـــد ارتبطت بالرومنطيقية أسماء كوكبة من الكتاب والشعراء ترددت في أوائل القرن الماضي في عالمنا العربي، وذلك عن طريق الترجمة التي اضطلع بها كتاب وشعراء كبار عرب نقلوا آثارهم نقلا مبدعا ..

حديث عن الرومنطيقية..

مـــا هي الرومنطيقية ،ما هي أصولها وحقيقتها، وما هو مدى تعبيرها عن المجتمعات التي ظهرت فيها؟ ورغـــم صـــعوبة تساؤل كهذا، يمكننا أن نستقي الإجابة من نظرتنا إلى الاتجاه العام الذي تكشفه لنا نتائج الأدب التي خلدت تلك اللحظة التاريخية في مسيرة الثقافة الغربية..

وتسود "الغنائية" أدب الرومنطيقية وهي تعبر عن الفردية وتطورها وانتشارها وتأثيرها كمــا تعكــس الغنائية تلك المظاهر التي تحمل مشاعر الحب والألم واليأس والكراهية إلى جانب الأحاسيس التي تعكس صورة العالم الخارجي المحيط بنا والتي تبني لنا تلك الصورة التي يحملها كل منا في داخله .

ويتمسك الرومنطيقيون بأحاسيسهم الخاصة وانطباعاتهم عن الطبيعة ولكنهم اقتصروا على الاحتفاظ فقط بانطباعاتهم الأولى الخاصة. أما اهتماماتهم بمشاعر الآخرين فذلك لأنهم بشر ولان الجميع يشاركونهم الإحساس بالطبيعة وبمنابع المشاعر..

إنهـــا تلـــك الغنائية التي تميز الشاعرعن غيره، والتي تتوجه بدورها للإنسانية. إنها تملأ النفوس وتظهر دوما في اتساق مع الخارجي. وتوجد كذلك في عمق ورغبات الفرد وتقدم له مشاكل المخلوق ومصائره من خلال الأشكال المتعددة للطبيعة . ويطرح الرومنطيقي ذلك التساؤل الخالد : من نحن والى أين نسير ونمضي؟ إنها القضية التي تبرز أمام الشاعر وهو يصور الأحداث العاطفية حيـــث يرى إن ظروف الإنسان مأساوية ومحدودة الأفق. وفي ظل المسيرة المتفردة لحياة الإنسان تظهـــر تلك الأنا المتدفقة والتي تتوقف فجأة عندما يأتي الموت ليضع حدا فجائيا لوقف ذلك التدفق. ويتساءل الشاعر كما يتساءل الجميع: هل الموت نهاية، أم مجرد وقفة؟ ما هو السبب؟ لم توجد تلك "الأنـــا" تختفي فجأة وما هو ذلك العالم الذي ينعكس في دواخلنا جميعا؟ ويظل السؤال يؤرق الشاعر الرومنطقـــي باحثا عن إجابة له في دقات القلب وفي جميع مظاهر الارتعاشات الماورائية. من هنا ذلك الطابع الغريب والصفة الغالبة لغنائيتهم كما ويقدم الرومنطيقيون صورا رائعة في شكل تأملات ورموز للغرابة.

وتـــتخلل الورمنطيقـــية تلـــك الميتافيزيقـــية[1]، التي تتجلى في اندفاعاتهم العاطفية.ويتكون موضـــوع الغنائية الرومنطيقية من خليط من العواطف الحميمة للفرد وظروف الإنسانية القاهرة في مجملهـــا. هذا إلى جانب التأمل والقدرة والحقائق العالمية العادية. وبذلك خلقت الرومنطيقية للأدب موقعـــا[2] لا محـــدودا واسعا يستوعب مواضيع كثيرة. وترجع جذور الرومنطيقية في فرنسا إلى تنامـــي وتطور جذور الفردية إلى جانب التأثيرات الأجنبية[3] والتي ظلت تمارس تأثيرها لثلاثين سنة

١- تـــاريخ الادب الفرنسي (١٨٥٠-١٩٥٠)ج لانسون ،نسخة فرنسية منقحةاضيفت اليها دراسة كتبها (بول توفرو) صـــــ٢٠٠ ،حول تاريخ الادب في القرن الثامن والتاسع عشر .

٢- الرومنطيقية -اصولها الانجلو -االمانية ، "رينو" ،(١٩٢٠)،المقدمة ص٣ (النسخة الفرنسية).

٣- المرجع السابق ،المقدمة ،ص٦.

عاملة على إدخال مواضيع جادة هامة. وترددت في سماء الأدب أسماء مثل "بايرون" . "والترسكوت"، "ورد زورث" ، "كوليردج" في انجلترا وفي الخارج.

في حين قدمت المانيا "شيللر" و"جوتة "، يقابلهما في إيطاليا "مانروني" و"الكونت دوكارما نجولا" مع العلم بان اتجاهات الرومنطيقية بالذات في إيطاليا قد اتخذت منحى خاصا وطابعا معينا، فهي تملك إرث "دانتي" وكوميدياه الإلهية والتي احتوت وبشكل قدير روح وقيم العصور الوسطى .

لقد عملت كل تلك العوامل على تسريع ظهور الورمنطيقية في فرنسا في السنوات (١٨٢٠-١٨٣٠)لان الفرنسيين الذين كانوا قد صنعوا الثورة ظلوا طويلا غرباء على تجديد القيم[١]ولكنها تركزت بعد ذلك وظلت تتخلل تلك التجربة الجديدة. كل العصور ولم تتنف تماما ولكن يجب أن نعرف أن انتفضة تمثل وتحدد فقط مدرسة ادبية قائمة آنذاك[٢].

وقد دشنت سنوات (١٧٩٨)ظهور مجموعة من الشعراء "وورد زورث" و"كوليردج" وغيرهم والذين تعتبر نتاجاتهم أعمالا رائعة للرومنطيقية البريطانية وقاموا بالتجديد في جميع ميادين الأدب حيث رموا بعيدا بالملحمية والمواضيع الكلاسيكية ومعوقاتها القديمة، ومفضلين مواضيع "الرومانسية التاريخية" و "المنظر المحلى" والصفات الأصيلة جاعلين من الشعر خلقا حرا تبرز فيه روحهم.. وعندما قام كوليردج بنشر سيرته الذاتية، ساهم بدوره في ذلك الجدل القائم حول ماهية الرومنطيقية .وفي نهايات القرن الثامن عشر عمل جيل جديد من الشباب بتقديم المفاهيم الجديدة تحت شعارات تجديد المعركة من اجل أدب جديد .

وفي ألمانيا تردد اسم شيللر(توفي عام ١٨٠٥)، ومن بعده جاء "جوتة"ونشر قصته "فاوست" في نفس العام (١٨٠٥). ولكنه بعدها اندفع في اختراعاته الرومنطيقية الغنائية المحركة للمعارك والمثيرة للقلوب ولا ترتبط الرومنطيقية الفرنسية بأية أفكار مشتركة مع نظيرتها الألمانية والتي سبقتها بجيل كامل وفي المقابل وحيث دخلت الرومنطيقية إلى إسبانيا عبر إنجلترا حدثت تغيرات عديدة في المفهوم الرومنطيقي ويرفض النقاد وصفها بالرومنطيقية في حين تظل ألمانيا في تلك المرحلة مركز إشعاع للاتجاه الرومنطيقي تشهد بذلك وفرة النتاجات وكثرة الكتاب الذين مارسوا الكتابة في ذلك الاتجاه. ومع التأثيرات السياسية المتبادلة في أوربا آنذاك فقد برزت تنويعات جديدة في ذلك الاتجاه الأدبي في مختلف بقاع أوربا. ويظل النقاد خارج أي بلد من تلك البلدان هم الذين يحددون بموضوعية، وبجدية مظاهر ومفاهيم الرومنطيقية في كل من تلك البلدان.

١- تاريخ الادب الفرنسي .ج.لانسون .منشورات مكتبة هاشميت .ص٩٠٩ (النسخة الفرنسية).

٢- المرجع السابق ص٩١٠.

البلدان هم الذين يحددون بموضوعية، وبجدية مظاهر ومفاهيم الرومنطيقية في كل من تلك البلدان.

ولنعد إلى الرومنطيقية الفرنسية والتي تنفرد في مفهومها وجوهرها وقد ساعدتها في ذلك الظروف الاجتماعية السياسية السائدة حيث أخمدت أصوات الحرية ظروف الصراع الدامي الذي أعقب الثورة وسيادة عنجهية الفكر العسكري البونابرتي .

وتعتبر الرومنطيقية في فرنسا ثورة ثقافية وضعت على المحك موقف الإنسان الكلي الشمولي في العالم والكون وعلاقته بالله وتداخله في العالم والتاريخ إلى جانب فهمه لنفسه وللحقائق الانسانية في مفهومها المتغير ودوما في المعنى والقيمة والجوهر. وتوجد علوم كثيرة وأخرى تاريخية تلك المدرسة الموسومة بالاندفاع الفردي الذي لا يتعدى اللفظة المعينة .

ولن نستطيع تفهم الرومنطيقية إلا في مجملها. ولكي نتفهمها يجب أن نتبنى هدفا. وبعبارة أخرى ينبغي لنا أن نجري تقديرا شاملا لمجمل المرحلة مع أن البحث عن مفهوم محدد للرومنطيقية يختفي تماما في الرمال المتحركة. ثم أن الاستخدام الشائع والأكثر ترددا للمفهوم لا يقاوم الاختبار. "وجوته" وحده وهو في ذروة نتاجه، الذي استطاع أن يقدم مفهوما حول الرومنطيقية الألمانية وحقيقة العالم يعارض فيه مفهوم الرومنطيقية الفرنسية[١] . وتعتبر الرومنطيقية بداية أسلوب حياة وأحساس لتصبح فيما بعد ثوابت في الثقافة الرومنطيقية، محققة ذلك الانقلاب في التحالفات الثقافية، والذي يفترض مظهرا من مظاهر ذلك التغيير المتواصل في التحرك الرومنطيقي. كما ويتجسد التأثير الرومنطيقي في كل عصر وكل مجتمع وكل نظام بشكل مختلف. ويمارس ذلك التأثير مداه في قضايا الفن والعلوم حيث يلتقي دائما .

وتبلورت مفاهيم جديدة للبطولة والجمال تنفي ما سبقها من مفاهيم كانت موجودة هنا وهناك منذ بداياتها وازدهارها في القرن التاسع عشر:"بودلير" في فرنسا ،"فاجنر" و "نيتشة" في عصر "بسمارك" الكل يتمرد والجميع يعبرعن اعتراضات متشابهة مما يؤكد على التأثير الرومنطيقي الأساسي والمباشر على مفاهيم العصر. وبرزت تلك المدرسة الأدبية في أوربا حيث وجدت مرتعا لها تتطور فيه وان بدرجات متفاوتة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومع ذلك يجب أن لا نضع اسم الرومنطقية على تلك الحقبة التي سادتها مظاهر التغيير والتناقض..

---

١ – لقاء جوتة مع لاكرمان :حوار حول الرومنطيقيقة .صــ٢ (في ٢٩ نوفمبر (١٨٢٦))–موسوعة لاروس الأدبية (القرن الثامن – التاسع عشر)

وتمـيزت الرومنطيقية بالنفي أولا ثم بالتناقض، رافضة جميع القيود السابقة خاصة فيما يـتعلق بتمايز الأنواع الأدبية والقوانين الداخلية لكل نوع ، حيث يدفع ذلك لتقييم وحدة النوع أو اخـتلاف الميول ومستلزمات التذوق في اختيار مواضيع وأسلوب كتابة وطريقة تعبير. وتتلخص القضـية إذن في المقام الأول بتوسيع وتعبير مواقع ميادين الأدب، واعادة تشكيل الشكل الأدبي: فوضـى فـي الـبداية وانتهاء بنظام جديد .. وان ما قدمه القرن الثامن عشر من قيم واهتمامات وهواجس إنما يدل على انه كان هناك شيء ما قبل مجئ الرومنطيقية وقامت هي بتحطيمه ..

ونذكـر هنا ظرفا مؤاتيا هو سقوط الامبراطورية، ذلك السقوط الذي وضع حدا لحقيقة النشـاطات القلقـة والمطامع الكبيرة الخيالية. وحاول الجيل الذي عاش انتصارات الامبراطورية وسـلام الـبوربون أن يبحث عن التكامل عن طريق العواطف الغنائية والمؤامرات العاطفية في الكتـب ... وفي اكتشافهم للأشكال الأدبية والتي كانت نحدده بالنثر ("روسو"-"شاتوبريان")، فقد انتهت بالشعر، واجتاز الشعراء جميع الحواجز الكلاسيكية وفي حرية واصالة تعرفوا على العالم الحديث. وقدموا اللفظة البسيطة التي يستقون منها الصورة الجميلة التي تعبر بصدق عن العاطفة والمشاعر في ثورة تامة على ما يسمى بالأناقة الأدبية والجمال اللفظي ..

وانطلقـت الكـتابة الحـرة العفوية معبرة عن ذلك الانقلاب في التحالفات الثقافية مما يعـرض مظهرا من مظاهر ذلك التغيير المتواصل من اجل أسلوب حياة جديدة.. ويتجسد التأثير الرومنطقـي وبشكل مختلف في قضية الفن والعلوم حيث يلتقي مع عناصر آنية وعوامل متغيرة، ولكـن لا يجـب هـنا وضـع حـدود بين الأدب والفن كما أكد على ذلك "جوتة" في حديثه مع "لاكرمان"[١] وبدوره حطم "ديدرو" [٢] ذلك الحاجز حيث أخذ الأدباء يشعرون انهم يكونون والفنانين عالما واحدا باحثين عن أهداف متشابهة كل على طريقته. ويشعر الكتاب والشعراء بأنهم مبدعون خـالقون للأشـكال وللجمال ويقدم الفنانون بدورهم نماذج للشعراء.. فقد رمى الفنانون بالملحمية والمواضـيع الكلاسيكية القديمة وجددوا في كل الميادين مقدمين المنظر التاريخي واللون المحلي مركزيـن نتاجهم على الصفات الأصيلة، وجاعلين من الشعر والفن خلقا يعبر بحرية عن الروح المتمردة .

وسـادت أوربا وفرنسا نقاشات حول الرومنطيقية الغنائية: واستمر جوتة في اختراعاته الرومنطيقية مقدما "آلام فرتر" حيث بلور آراءه في نقاشـاته المثيرة مع "لاكرمـان" وحيث قـدم

---

١ -لقاء جوتة مع لاكرمان :حوار حول الرومنطيقية ، ص٣.

٢ -الموسوعي الفرنسي المعروف.

"كوليردج "[١] في سيرته الذاتية واحدة من اندر المساهمات الإنجليزية في الجدل حول الرومنطيقية والتـــي جددت الشعارات وقدمت المفاهيم الجديدة. ونذكر مسيرة الجدل في فرنسا والتي لخصها "فيكتور هوجو"في مقدمة مسرحية "كرومويل"حيث قدم المثل الفنية، والمفاهيم الجديدة حول البطولة والجمال والعاطف المختلفة والخاصة بمسيرة الأدب الرومنطيقي في فرنسا... لقد قدم "هوجو"في مقدمـــة كرومويل[٢] وفي تعابير فخمة وصور طموحة، عصور الأدب المختلفة في تسلسل منطقي واضـــعا أســـس نظرية التناقض بين القبيح والجميل بين الرائع والفج. ونراه وهو يعارضها إنما يجمعهـــا فـــي الفـــن والى جانب ذلك، فقد نادى بان كل ما في الطبيعة يجب أن يكون في الفن. وأصبحت الرومنطيقية في نظره عودة إلى الحقيقة والى الحياة وحطم قوانين التذوق السابقة ونظم الأنـــواع الأدبية رافضا كل ما يتعارض والعرض الحر والتوجه التام إلى الطبيعة . ولكنه يتمسك بضـــرورة الـــترجمة الفنية الواضحة لكل ذلك، وبالاختيار والتركيز وبعض التوافق أحيانا وكلها وسائل بدونها لا يكون الفن .

الفونس دو لامارتين (١٧٩٠-١٨٦٩)..

لقد حدد "فيكتور هوجو" في مقدمة "كرومويل" "المفاهيم الرومنطيقية ولكننا لا نستطيع إلا أن نذكـــر كوكـــبة كانت قد بدأت في تثبيت أسس ذلك الاتجاه في فرنسا، "لامارتين " ، "فينى" ، "هوجو". ففي بداية (١٨٢٠) نشر لامارتين مجموعته الشعرية "التأملات " والتي دشن بها عصر الرومنطيقـــية، ومن بعده نشر "فينى" مجموعة "أشعاري" (١٨٢٢) مقدمين بذلك النماذج الفلسفية والفكرية لذلك الاتجاه الذي لم يكن قد تبلور بعد في فرنسا ليصبح مدرسة خاصة بها. ويعتبر هذا النـــتاجان تعبيريـــن متباعدين للعبقرية الشعرية، ولكن لم يضع أحد منها نفسه منظرا أو متمردا. ونشـــر "هوجو " بعدهما قصائده الطويلة (١٨٠٠)، ولكن في لغة كلاسيكية جاءت لتتكامل بشكل رائع مع النتاجين السابقين ومعبرة بذلك عن الغنائية[٣] كما حدد ذلك "جون جاك روسو" وتبدو هنا تلك المواهب التي ساعدت على ترسيخ ذلك الاتجاه في الأدب.

---

١ - سيرة أدبية (Bibliographia Literatura).

٢ - مسرحية كرومويل (١٨٢٧).فيكتور هوجو .

٣ - مرثين .مجموعة دراسات قام بتحضيرها "بول فياينكس"بمناسبة مرور مائة عام على رحلة إلى الشرق فلامريون(١٩٧١).

ولنعد إلى "لامارتين " موضوع دراستنا، الذي استطاع أن يمسك بتلابيب تلك اللحظة التاريخية التي أفرزت تلك الأزمة الفكرية في الميدان الثقافي وذلك الانقلاب في التحالفات الثقافية ونبذ كل ما هو كلاسيكي في الفكر أو الأدب أو الفن، والوصول إلى اختراع مسار جديد في الميدان الثقافي .

لقد قضى "لامارتين"طفولة هنيئة يغمرها الحب والتدليل من قبل الأهل والاخوة والأخوات، يحيطها كل ما هو محبب وكامل في "ميللى" مسقط راسه. ثم انهى دراسته الثانوية ودراسته في الفروسية وتأملاته وقراءاته العديدة في التاريخ وخاصة في كنوز التاريخ الروماني والذي كانت كثيرا ما تثير لديه الكثير من الجدل والتساؤلات كما كانت قراءاته في الكتاب المقدس تثير لديه نفس التساؤلات والخيالات بقصصه العديدة .. كما وأثارت أسفاره بدورها ثقافته ومشاعره وخياله، من نابولى (١٨١١) إلى سافوى وجبال الألب ثم إلى اكس -ليبان[١] (١٨١٨) .. ولن ننسى رحلاته إلى الشرق بعد ذلك بمدة طويلة، مع زوجته وابنته حيث زار رومانيا وفلسطين وسوريا ولبنان واليونان وغيرها ولسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد في نهاية الدراسة عند مناقشتنا لكتابه "رحلة إلى الشرق "(١٨٣٢).

لقد ظل لامارتين طيلة حياته لا يقبل أن يعيش من الأدب ولا أن يقول أن مهنته الأدب ولم يكن ذلك احتقارا يحمله الارستقراطي للادب وانما احتراما لنفسه ولروحه[٢].. فقد كان الأدب بالنسبة إليه غذاء روحيا وعملا يقوم به لإرضاء ذاته، ولم يقبل مطلقا أن يكون مهنة حياته رغم إنتاجه الغزير الثر من الشعر ولم يكن يقدم نتاجه[٣]حتى للمكتبات وانما فقط ما كتبه نثرا وفي كهولته .

وقد تزامن نشر "التأملات " (١٨٢٠) مع مجموعة "فيني" الشعرية "أشعاري (١٨٢٢)" وعملا بدون أي تنظير على ترسيخ أسس تلك المدرسة الجديدة .

وكانت السنة التي نشرفيها لامارتين مجموعته الشعرية الأولى "التأملات"(١٨٢٠)، شاهدة على أول انفجار شعري في القرن التاسع عشر. ذلك الانفجار الذي أثار عالما يتغير،

---

١ -اكس ليبان -" aix –les bains"حيث التقى ببطلة وملهمة قصيدته الشهيرة البحرية.

٢ -"لامارتين "دراسات جمعها "بول فيبانكس"،بمناسبة مرور مائة عام على ولادته رحلة الى الشرق "،فلاماريون،ص٩٤٩.

٣ -تاريخ الأدب الفرنسي في القرنين التاسع والعاشر والعشرين لمجموعة الكتاب بإشراف ب-بر وبيل . منشورات بوردا (١٩٩٩٦م).

وتاريخا يتأرجح "وأنا " تتكشف وتكشف أعماقها.. لقد اخترع قصيدة أصيلة متحررة يهبها أسراره وكوامن نفسه وكل أماله وخيالاته واوهامه، في إعادة ناجحة لخلق اللغة الشعرية والبيت الشعري.

انه يتعرف على ذاته ويعرى نفسه عندما يقول "أنا" وهو يصرعلى استخدام الأنا علامة على خصوصيته الأدبية و"الأنا" فاعل ومفعول للقصيدة متحدثا أو هدفا أساسيا لها ذلكم هو قانون النص الرومنطيقي. يقول "لامارتين" في معرض حديثه عن التأملات"..أنا لا أقلد أحدا مطلقا" أنني فقط اعبر عن نفسي لنفسي أن شعري تخفيف وبلسم لمشاعري ولالام قلبي، و الذي اصبح موضوع وميدان شعره الذي يرفض التجرد والجمال المجاني .

و"الأنا" لدى لامارتين هي أساس الخطاب الشعري الذي يسطر المآسي والعواطف كما أن القصيدة الرومنطيقية هي بدورها صدى الانطباع وانعكاس "لحميمية"صامتة ولقلق المشاعر. ويؤكد "لامارتين "على أن الشعر يكون اكثر حميمية كونه الصدى العميق الحقيقي والمخلص لاكثر المشاعر الغامضة والسرية والرقيقة للنفس "انه الإنسان الشاعر نفسه وليس صورته فقط "، أي الإنسان المخلص في مجمله "[1].

وقد تحررت القصيدة الرومنطيقية بانفتاحها على الأحلام والقلق وتلك الانطباعات الغامضة التي كان يتجاهلها الشعر الكلاسيكي. وقد التزم لامارتين بذلك إلى جانب وقوفه بجانب المعذبين والمظلومين مدللا بذلك على وعيه بضرورة الشعر ووظيفته الجديدة وقدراته على إمكانية احتواء حقيقة الكون كله رمزا لمشاعر الروح وتوحدها مع الكون ويكون النتاج وسيلة للكشف عن تلك الوحدة السرية الغامضة بين "الانا "وبين العالم ووعد بالتوافق بين الإنسانية و التاريخ ..

"أيتها الأبدية أيها العدم، الماضي، أيتها الهوى المظلمة
ماذا تفعلون بكل تلك الأيام التي تبتلعونها
تكلموا هل تعيدون لنا ذلك الافتتان الرائع ،
الذي تغمروننا به !
أيتها البحيرة ! أيتها الصخور الصماء أيتها المغارات !
يا من يوفركم الزمن شبابا خالدا ابدا !
احتفظوا لنا من ليلتنا هذه بالذكرى على الأقل !
احفظيها أيتها الطبيعة الجميلة !

١ -دواوين الشعر الفرنسي من ١٧٩٥ والى اليوم بإشراف "دومينيك رانسيه "منشورات ناتان ، (١٩٩٢)(ص٣٤).

ماذا ؟ ألا نستطيع أن نثبت أثرا لنا ؟
ماذا ؟هل نمضى هكذا ؟ماذا إلى العدم ابدا ؟
انه ألزمن الذي منحنا الحب ،هو الذي سيمحو آثارنا !ألن يعيدها إلينا ؟
أنني أرجو بضع دقائق أخرى دونما جدوى فالزمن يهرب منى
أقول لتلك الليلة "لاتنقضى سريعا "،فالفجر سيبدد ظلمة الليل .

تلــك بضـــع أبيات من قصيدة "البحيرة "وهي واحدة من اجمل قصائد "التأملات" وارقها والتي وعدت بظهور المفاهيم الجديدة وحرية الأديب في اختيار الشكل والمضمون دونما قيود، بل حريته في اختيار وانتقاء جميع الأشكال التي يراها ضرورية ويمكنها أن تساعده في التعبير عن موضـــوعه المخـــتار في ميدان النظم أو الشعر. تلك الحرية التي تمثل روح وفكر الرومنطيقية والفـــردية والغنائية التي تتحدث عن كل ذلك، وتغنى بكل مشاعر الحب والألم واليأس والكراهية ،إلى جانب تلك الأحاسيس التي تعكس العالم الخارجي والمحيط بنا والتي تبني تلك الصورة التي يحملهـــا له الفـــرد في دواخله .وبطلة تلك القصيدة هي"مدام بشارل" زوجة طبيب شاب، وكانت وحـــيدة ومريضــــة والـــتقاها ذات مســـاء على شاطى البحيرة في "اكس ليبان "، وكانت ساحرة بشـــرائطها الســـوداء وعيونها الجميلة المنكسرة.. وتواعدا على اللقاء في العام التالي ولكن ذلك اللقاء لم يتم وماتت في عام ١٨١٨ .أنها "الفيرا "التي تجمعت حولها جميع الانطباعات والمشاعر والأحزان والعذابات المتتالية في قصائده التالية..لقد كانت موهبة الأحزان اللانهائية هي ما ورثه لامارتين من "شاتوبريان"[١] ولكنها تتخلص من كل المرارات عندما تمر عبر روحه القلقة.

لقد دارت حول "الفيرا" اكبر الأحزان واكثر الطموحات المحمومة .فقد حطم الموت ذلك الحب المشؤوم أثمرت الأحزان مجموعة "التأملات" التي خرجت عن مألوف النظم أنذاك. وتتميز بالعفويـــة والإخـــلاص الـــذي يكشف أولا بأول مكامن الإنسان وحماسه. "فأي حماس هذا، وآية عواطف تلك التي تأتى لتغيرنا جميعنا بتلك الصدمة من الاكتشافات التي تملا أشعتها قلوبنا دفئا[٢]"؛ كما يقول "سانت بوف". ويواصل "سانت "يوف " بقوله[٣] بان "لامارتين يحتفظ شعره بسمة

١ – شـــاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨)شـــاتوبريان الابـــيقوري ذو الفكر الكاثوليكي (ص١٥٩) من كتاب اصدره "جان دورسون"عضو الاكاديمية الفرنسية ،بعنوان (تاريخ اخر للادب الفرنسي)دار نشر النيل –١٩٩٧
٢ أحد النقاد المعروفين جدا في فرنسا في القرن التاسع عشر
٣ سانت بوف ،الكراسة الخضراء ،تاريخ الأدب الفرنسي .فنشورات مكتبة هاشسيت ص١٠٤١

خاصـــة وهو انه لايهتم كثيرا بالعمل الدقيق عليه "، إنما نراه يكتب بعفوية وحماس ما يشعربه. فقد كان عمله الشعري موجها للتخفيف عن آلامه وعذاباته تاركا مضمون أشعاره يسيل وينساب دونما جهد وهو غامض في أحزانه وأفكاره وفي مفاهيمه تجاه الحقائق التي تواكبه. كما أن نقـــاءه ينبعث من غرائزه، وهي إحدى حقائق طباعه. وهو لايدعى كونه مؤرخا أو مفكرا أو رســـاما، رغـــم قدرته في تحمل مضمونه جميع أفكاره. وظهرت طبيعته تلك في "التأملات "التي نحـــس فيها ومعها عند قرأتها ولحد ألان، بتلك الارتعاشه المصحوبة بالألوان المتناسقة في عمق حزين. فمثلا قصيدة "الوحدة "،"جبل "،"شجرة عتيقة " ، "نهرما "، تجيرة ما، كنيسة قوطية، غابات "غروب" ..الخ.

أين تجد كل ذلك؟ في الكون. وأين يوضع كل ذلك ؟

فـــي التتابع بالطبع ..انه لا يوضح أي رابطة ملموسة تربط روحه وذلك الكون ولكنك تحس بها وتشعر بوجودها :

"**<u>شـــخص واحـــد تفقده، ويبقى العالم كله فارغا تماما!</u>**" لا نشعر ظاهريا في ذلك البيت سوى بيأسه وطموحه وعواطفه بشكل عام.. ولكنه يفقد تلك الرابطة اللامرئية بالكون عندما يفقد شخصا أثيرا لديه...

وتنســـاب عواطفـــه نحو أي مكان غامض لا اسم له في البحيرة ؟سفينة شخصان؟ إلى ؟ لا نلتمس سوى عاطفة الشاعر :

"انه حبنا الذي يبقى قليلا ؟

أم نحن الذين نعيش قليلا؟"

كل شي غارق في ضباب وينحمي كل شي يمكنه أن يحدد شكلا خاصا بالشاعر .. كل تأمل ليس سوى تنهيدة تلك هي مضامين التأملات التي افتتحت عهد الرومنطيقية الفرنسية محددة الكثير من سماتها .

وهاهو يهدهد نفس الأحزان والهمسات في مجموعة أخرى "التأملات الجديدة " (١٨٢٣) التـــي تـــبعها "بتناسق الشعر والدين " (١٨٣٠) ولكنه أحس بعد فترة انه يجب عليه أن يجد شيئا آخر، لأنه لم يستطع أن يعيد روعة تأملاته الأولى ،وحيث توقف عند مشكلة الإنسان؟ والى أين يقـــوده الحب إلى الموت إلى الخلود وما هو القدر ولماذا التفاؤل ؟ وقد صدق سانت بوف "تماما عـــند مـــا وصـــف أشـــعار لامرتين بالقلق ووصفه بأنه "سيد قصيدة الشك والقلق واغنية الأمل

والأيمان[١] "وأنا أقول انه صاحب قصيدة الماء .فقد لعب الماء دورا كبيرا في التأثير على عواطفه ومشاعره واجمل ما كتب من أبيات هي تلك التي يعبر فيها عن همسات المياه والأمواج إلى قلبه الكلـيم ففـي اعترافاته يقول لامارتين "لم ادرس كما اليوم تلك الهمسات ،وذلك الأنين والغضب والعذابـات والـتموجات التي تحدثني في تلك الليالي والأيام التي قضيتها وحيدا"[٢]ويفرض مجتمع البحـيرة نفســه على الشاعر دون أن يبدد له قلقا أو حزنا أو يمحو له حلما انه الماء الذي أحبه لامارتيـن وكـان محورا للكثير من أعماله وهو في اعترافاته لا يحاول اكتشاف أسرار الوجود وفلسـفة الحلم ولكنه يعرف جيدا وتماما التعبير عنها في رقه ورومانسية وتتميز أشعاره باختيار الكلمة المفردة المعبرة والفعل على وجه الخصوص ..وبوصفه لطبيعة الصورة وتنوع الإيقاع كل شـي يـنافس لتصويره فقط لحركة الماء :"والموجة تتفرع ،في دورة كبيرة، "تتدحرج تختفي في البعيد مع بقايا النهار "

وهو يؤكد على أن المتأمل يشاهد فقط كما جاء على لسان بطلي "سقوط ملاك"في جزئه السادس، مقدما خبرة غزيرة عليه حيث اختفى مئة يوم في كوخ أحد الصيادين على بحيرة ليمان في سويسرا كما أن السرية والغموض في رأيه لاغنية المياه "تعود "...

"في داخلي يعلو الصوت دونما توقف "

انه في بحر من الأصوات في حركة دائمة

وهو يرى أن الأحلام لا تتطور بحرية إلا في وسط سائل

"كما الأمواج المتعرجة في بحر غامض وشكلها المتغير دوما في كل لحظة "

وتظـل نظـرات الشاعر تائهة بين عظمة المياه المثيرة التي تتعانق مع عظمة السماء لتختفـي بعـيدا" ومع اختلاط الأفقين اللازورديين على حد الأفق تبدأ السماء حيث تنتهي البحيرة ويحس الشاعر بأنه يسبح في الأثيرالنقي ويحتضن في أحضان المحيط العالمي وينفق الجميع على أن لامرتيـن اصدق من وصف المياه. اوليس هو شاعر "البحيرة "و"مارسيليز السلام "حيث تغنى بتمجـيد نهرالرايـن وعبقريـته الشـعرية وفي أفكار مسافر (١٨٣٢) نرى أن شاعر "الأمواج المتناسـقة "يقـدم قصـيدة تحوى الكثير من الصور في اختيار متعمد لتلك الصورة المرئية حينا والمخفية احيانا تتوافق في ترانيمه المائية مع طير البحر الذي يبني عشه فوق الأمواج[٣]...

---

١ -المصدر السابق "سانت بوف "الكراسة الخضراء ،تاريخ الادب الفرنسي ،منشورات مكتبة ماشيت (صــ١٠٤٣).

٢ -الاعـترافات ،الجـزء الحـادي عشر (صــ٣٦٢-٣٦٣)المجموع الشعرية المكاملة بادارة م.ف.جويار مجموعة جاليمار

٣-الشاعر يحتضر "ص٣١ وكذلك ص١٥٤ بالفصل الخامس من الاعمال الكاملة .

"والشاعر كما الطيور المهاجرة ،

متربعا على تيار الموجة ،تأخذه بعيدا...

تلك الطيور تمر وهي تتغنى بالشطان البعيدة

ويتـبع إيقـاع قصـيدة الماء لدية أنموذج ذكرياته .وكان دائما يتصور دائما أن سريره يـتأرجح علـى "أمـواج البحيرة "وانه لا يزال يحس بذلك التمايل وان سريره يظل سابحا فوق الأمواج حتى بعد نزوله إلى البر[١].

ونـراه ينشر الجمال في كل دقائق موضوعه ،في كل شي وفي كل مكان أن – حبه، يغطى الإنسانية والطبيعة بالألوان الزاهية ولا يوجد مثله من ينشد أنشودة الأمل . انه ينادي دومـا بالابتعاد عن القبيح والاقتراب من العالم ومن الطبيعة والتمسك بالعواطف وعدم التضحية بالحاضـر ولا بالعـالم ،مخـترعا وصـفة جمالية للمحيط السائل متداخلا بذلك في حيز التقليد الميثولوجي الذي يحفز الإنسان ويمتلك الأزل ويعترف بالواحد الخالق .ويدل شعره على امتلاكه لذلـك الشـعور الأقـوى بمسيرة الأشياء في ذلك العالم ونكتشف في كل لحظة لديه ذلك الممر السحري الذي يسحب الأشياء الجديدة مع عواطف الناس في خضم نهر "هيرافليطس"

ولا يقـف على الشاطئ مشاهدا محايدا فقط فالحب والامل لديه هما اجمل مافي الطبيعة يمتزجان هنالك في أعماق المياه أنها حلم الإنسانية المعذبة .

ويختلف الحلم لديه عنه لدى معاصريه .فالحلم لدى "فينى" يشبه لؤلؤة من الكريستال أو المـاس ،ولدى "هوجو" يرتفع بعيدا في الأعالي أو يدور في الأعماق ومتعلقا بتلك القدرة ألا لهيه التـي تحرك كل شي وحدها فالكل يذهب ويعود إليه ،إلى الله بينما نرى الحلم اللامرتيني يتموج في أحضان المياه ، مياه البحر الأحمر التي تراوده ويراها دوما وإذا لم يستطع الإنسان أن يتقبل ذلك الحلم فسوف يعيش بلا أمل.

"وكذا أراني " دوما مندفعا نحو شواطئ جديدة

في الليلة الأبدية يحملونني دون ما رجعة

أفلا نستطيع التوقف على شواطئ الزمن

نشاهد المرسى ولو يوما واحدا

ويقـدم البحر للامرتين ذلك العصر الذهبي لذكريات شبابه ويعيد إليه حياة جديدة مليئة بالمسـرات الخـالدة بين الأمواج التي يحتضنها وهي تباركه. ويلتهب خيال الشاعر بأغنية الحب

---

١ – "التاملات "المقدمة ص٣٠٠ ،ص١١٥٤.

ينـــثرها بين الأمواج مع ضربات المياه على جسده تناديه على طول الشاطئ من قلب "التأملات " ولا يدهشنا لامرتين وهو يقدم لنفسه وفقا للقانون البحري بتهديدات الموت و العذابات وعدم اليقين فـــي المصـــير والقـــدر ؟أن الجـــواب المفاجأ يتوقف لديه على تفهمنا لتوافق وهارمونية الخليقة والعنصر المائي الذي يتمسك باحتكار أي تصور والبحر هو مرآته التي قدمها الإله للبشر ويحتفظ لامرتين بتلك المرآة ويمثلها ،ولكن ليس كما "نرسيس"[1] فهو ينغلق في تأملاته ويسبح في خيالاته ليذوب في سعة المنظر الذي تخلقه نقطة ندى :

"في قطرة الندى المتعلقة بنهاية العشبة

تنعكس سماء اوسع وأبقى

من المحيط الكبير في أودية الأفق"

ورغـــم تـــنوع نتاجه الأدب من قصة ومسرحية ألا انه ظل منتميا إلى الشعر الذي صنع شهرته. ويتميز شعره بتلك الغنائية المترعة بالأحزان اللانهائية والبعيدة تماما عن المرارات .ورغم أنها غنائية بدأت محدودة ألا أنها تطورت مع تطور إبداعه ليشمل خبرة العالم ".

ومـــنذ بدايـــته الشـــعرية وحتى نشره لمجموعة "التناسق "(١٨٣٠) كانت الطبيعة هناك تحـــاول أن تخـــتلط بأحـــزان والام "مرض العصر "وحيث وصول الشعور بالطبيعية حد التفكير الشـــمولي الكونـــي فـــي "أنشودة الصباح "ويستمر ذلك التطور لنراه في قصيدة "موت سقراط "(١٨٣٠)يحمل الشعر إلى حافة الفلسفة ،وواضعا

بذلك موقف الإنسان على المحك تجاه نفسه وعلاقته بالله وبالكون وتداخله في العالم وفي الـــتاريخ علما بان الحقيقة التاريخية والحقيقة الإنسانية تتغيران دوما في القيمة والمعنى .وتصل ملحمـــية لامرتين إلى تقدم ذلك الشعر الإنساني الذي يحكي قصة السقوط والندم والعودة والأيمان بـــالله والعطـــف الإلهي وذكريات الزمن الضائع والسعادة الفانية ولحظات الحب العصية وهاهو يصيح لاعنا الزمن الذي يمحو كل شي ويفني الأجساد والعواطف :

"ليتوقف ذلك الزمن ولتتوقف مياه البحيرة عن الجريان

ولتحفظ جمال اللحظات الغابرة وذكريات الحب الذي ضاع "

وتكشف صرخته تلك عن الأحزان التي تعصف بحياة الشاعر وتملا وحدته بالذكريات .

---

١ –احـــد الهة الرومات الذي كان يعشق نفسه لفرط جماله ومات وهو ينظر إلى نفسه في مياه النبع الصافي متناسيا كل ما حوله وتائها في ملكوت صورته الجملية المنبعثة من سطح الماء.

ولـــم يمـــنع شـــعر القلب المحب الرومنطيقين من التمتع بالإلهام الاجتماعي والسياسي ولامرتيـــن على وجه الخصوص قدم لنا في الكثير من أشعاره أحاديث عن العدالة والحرية وذلك قبل وصوله إلى سدة الحكم عام (١٨٤٨)عندما تراس الحكومة الموقتة غداة أحداث فبراير وغداة الانتفاضة العمالية في يونيو احتضن الجمهورية ولكنه ظل رافضا العلم الأحمر الاشتراكي وبدأت شـــعبيته بالأفول وسقط في الانتخابات (١٨٥٠). وكان ذلك الفشل نهاية حياته السياسية ليعود بعد ذلـــك الفشـــل الـــى واحة الأدب "وما أحلى الرجوع إليه " ولكنها عودة مثقلة بالهموم والعذابات وبـــنظرة جديـــدة إلـــى الحـــياة .وكانت ضائقته المادية دافعا لان يقوم ببعض الأعمال البسيطة والكـــتابات التاريخـــية التي يمكنها أن تقيم أوده ،ورغم ذلك فقد أغنى الأدب بنتاج متنوع .إلا أن الشـــعر ظل دائما واحته المفضلة ويقدم نتاجه الشعري المتاخر للقارئ صورة مغايرة تماما عما آلفـــه مواطـــنوه فقد كان يريدان يعرف ويفهم كل شي ، أن يدرك سر الوجود ،وان يتعذب كلية ليـــتعرف علـــى الخالق بدلا من الانتحام به ولكي يحس بكيانه كله فيه .لقد احب الله وسيكون من الممتع جدا أن يتصدى أحد ما لدراسة تلك العلاقة ونراه وهو الشاعر الغنائي يخلط المفهوم القائل بان الله موجود في جميع الكائنات والعقل ،بالمذهب الكاثولكي. ودبج قصيدة "الصليب" التي احبها الكثـــيرون .أن أغنـــياته ومرثياته تتوجه نحو الخالق في سيل من الشاعرية وعندما يصف مثلا طلـــوع الفجـــر على جميع الإجرام السماوية فإنما يعتبره أغنية موجهة إلى الخالق .وفي "أنشودة للصـــباح "نراه يلخص رؤيته مقدما مثالا على السمو نحو توجه جميع المخلوقات والأرواح نحو الخالق في انطلاقة متسارعة

"أصعدي إذن تأرجحي، تحركي طيري وأصعدي"
أيتها الريح وايتها النيران
اصعدي نحو الله عاليا في السموات، عاليا، عاليا "

ويخاطب النهار بقوله :

"لست سوى خطوة في الأفق
يرسمها ألهك،"
انه لم يخلقك أبدا لمجرد الزينة
وانما لتقدم له دائما في السماوات حيث يقيم
المجد والفضيلة والمديح والشكر كل لحظة
على أجنحة الساعات
انه يحاول التوحد ويحس بكيانه كله فيه

"أنني احتضن العالم المصغر

ويملؤني حزني وحدى

ولا تتوجه صيحتي سوى لربي !"

وقد تبلورت تلك الأحزان الممزوجة بالعذابات ،بالحنين إلى البيت والى مسقط الرأس في قصيدته الطويلة المدهشة "الكرمة والبيت " والتي اعتبرّها وصية الشاعر الإنسان لامرتين لقرائه قبل مغادرته لذلك العالم الذي أراد أن يحتويه ولم يترك له سوى الجراح وقصيدة "الكرمة والبيت" (1857) حـــوار بين الانا المعذبة و"الروح الحرة " وتكشف أبياتها عن شفافية إنسانية لم تفقد بعد الصـــفات اللامرتيـــنيه تتحرك كلمتها في جرس موسيقي بديع مجسدة أوهام الحياة وفشل الوجود الإنساني .وهي تحوى الكثير من الآبيات الجميلة المشعة

"لاتسمح أبدا يا الهي بذلك الأسى والظلم "

وتنـــتهي تلك القصيدة الطويلة بهذا البيت الذي يتحدث عن مصائر أولئك الذين اختارهم الله للمحاكمة الأخيرة

"الوداع ، الوداع ، الوداع "الوحيد بلا دموع !"

ولكـــن اجمل ما في تلك القصيدة، تلك المقاطع بعنوان "الليل يهبط " ليل العمر القصير وحيث دبج اجمل الحواريات بين الأنا "الروح "

"الأنا"

أي حمـــل هذا الذي يضغط عليك يا روحي كما ثمرة الحياة تضغط على عذابات المرآة متلهفا أن يولد ويبكي عندما يولد.

هبط الليل يا روحي، فلنسهر قليلا

وغروب هذه الشمس، فجر لشمس أخرى

تتخلى الشجرة عن الورقة وتحتفظ

بالتمرة فلتباركي الإله الذي حدد الغروب

بين وشوشات المساء وهدوء الليل

" الروح "

"لا ! منذ أن نسيني الزمن وحيدة هناك

تبدو الأرض لي عجوزا كما الجدة

تبكي في ثياب الحداد أولادها

أنني لا احب سوى ساعات الظلام
ولا اسمع الاترانيل القس أمام التابوت
ماذا تقدم لي الشطآن ؟ والكرمة اليابسة ؟
ماذا تقدم لي السماء إذا كانت فارغة !"
أنا لا آري هنا سوى الغائبين
"فلماذا تثيرين أحزاني و أسفى ؟

"الأنا "
بينما تتناسي الروح ساعات الزمن "
يبقى ظل الجسد العزيز
فوق العشب البارد
وفي هذه الظلال فوق الندى
ما يهدي أحزاني وبكائي وحيدا
انه ذلك الإحساس القاتم اللذيذ .
بان أيدي ملاك
تسحب من مهدى كفنا
قدسيا تلفني به !"

أن من يود أن يفهم "لامارتين "يجب أن يقراه مرتين أو ثلاث قبل أن يصدر حكما نقديا على نتاجه لان ما يميزه ليس فقط ذلك الإبهار وانما الحميميه والجمال .ثم ذلك التطور الطويل الذي يشهده من يواكب نتاجه من الرقة الى القسوة . يتحدث عن "جوسلين " (1836) و "سقوط ملاك " (1838) فيقول "يجب أن أساعد وان أحظى بالثقة والاحترام فعندما تقدم نقدا من القلب فإنما تقدم نفسك اكثر فأكثر كي نعرفك " وكان يصر على بساطة وحقيقة جوسلين وطبيعتها والتي كان يعتبرها[1] قصة للنفس الإنسانية يقدمها شاعر "إلى جمهور جديد " لقد اصبح "هوميروسا" حميما يقدم ملحمة للطبقة الوسطى "وللأسرة [2]" وتقترح قصة جوسلين توافقا للفكر المسيحي اي لروح التضحية ولأفكار العمل والحرية .

---

1 –الاعترافات .وفقدمة جوسلين ص15

2 –مختارات من الادب الفرنسى (من 1795الى اليوم) منشورات ناتان ،ص34

وتقدم لنا "سقوط ملاك "لامرتين أخر غير الذي عرفناه .وسيستمر ذلك التحول مع كتابه "رحلة الى الشرق". ويعود الفضل في ذلك التحول الى المركيز دوساد وأفكاره سواء عن قصد أو عــن غيــر قصــد .وســنرى أن ذلك الماء الرقراق يخفي الأعماق الفائرة المختلطة كما تبرهن الدراسة المتعمقة للزمن على أن الحلم قد انتهى مرة واحدة والى الأبد إذ أن المسافة بين "التأملات " (1820) وبين "انطونيلا " (1867) طويلة ولها أهميتها في تطورات الفكر والمشاعر الإنسانية، وتحولها بسبب العذاب والمعاناة والمشاكل الحياتية تحولها من الرقة إلى القسوة المبررة كما تبدو في "انطونيللا"

وسنصــل الآن إلى محطة هامة من ذلك التحول ومن أسبابه أيضا والتي تمثلت "برحلة إلى الشرق "

كتاب رحلة إلى الشرق (1835)[1]..

كــان الأدب دائما وأبدا في خدمة النظام القائم في أي مجتمع كان ، يعبر عنه أو يدافع عــنه أي يناهضه ويكون رهن إشارة المصالح، و أدب الرومنطيقية وما تبعه والى نهايات القرن التاسع عشر كان اكبر مثال على ذلك واحد تلك الأمثلة موقف ونتاج لامرتين وخاصة ذلك الكتاب الذي نحن بصدده .

وهــناك كتاب شعراء آخرون نشروا كتبا بنفس العنوان وقد نشر رفيقه في نفس الرحلة الطبيب والكاتب "دولاروايير" كتابا عن "الرحلة إلى الشرق" (1834) لدى نفس الناشر .وبخلاف لامــرتين كــان كــتابه من جزء واحد .ويمجد الطبيب الأديب بلدان الشرق وحضارتها القديمة ومــناظرها الخلابة .مع ذلك فهو بعين الطبيب الفاحصة قد شخص كما يفحص المريض أوجاع تلك البلدان. في حين نرى أن "لامرتين "على عكس رفيقه الطبيب عندما قرر السفر أراد أن يكون المسافر الشاعر والفيلسوف[2]ولم يكن كرفيق السفر تستهويه تلك الحضارات القديمة أو الحنين إليها ويقــول "آني افضل شجرة وارفة حية أو نبعا صافيا تحت صخرة أو نبتة متسلقه مليئة بالزهور على قوس قديم مهدم على شاطى نهر[3]"

---

1 –كــتاب في أربعه اجزاء وظهر في طبعته الاولى ،لدى منشورات شارل جوسلين ،شارع سانت جرمان دو بريه لامرتين.

–وبعد ذلك اصدر لامرتين كاتبه "الملخص السياسي لرحلة إلى الشرق "وظهر في الاعمال الكاملة (جوسلين فورت – 1842)

2 –الجزء الأول كتاب "رحلة إلى الشرق "،لامارتين ص125

3 –المصدر السابق ص125

ويقول "جيراردونرفال" في "رحلة إلى الشرق " (1927) بعد قرن من رحلة لامارتين : "بالنســبة لى تثيرني"[1]عادات المدن الحية اكثر مما تثيره مشاهدتي للمدن الميتة " أنها تلك الصلة الحيــة بــالمدن هي التي أعطت لرحلة لامرتين في ذلك الوقت طعما أخر اكثر من كونها أدبا، كونها تحوى صفحات ظلت ولقرن من الزمان تحتفظ بحيويتها لدى شعوب أوربا الشرقية.

وعــندما وصل إلى "فينيا " تذكر أوربا آنذاك عندما هاجمها العثمانيون (1683)، وكيف عــم الذعــر اوربــا. وفي زيارته للشرق العربي وصف المجتمعات العربية بأنها " مجتمع جديد يتكون ويتخبط بين ذكريات الماضي والخوف من المستقبل "[2]

وقــد أراد لامــرتين من زيارته للأراضي المقدسة وزيارته قبر المسيح أن يقطع الشك بــاليقين فلم تكن زيارته أذن مجرد خطوات للذكرى ،فذكرى الخطى الصليبية قد امحت على تلك الأراضي ..

وكــان "لامرتين يدرس بعين ناقدة أحوال الناس من دون اتخاذ موقف ما معين أو مبدا عــداوة مــا تجــاه الغــازي التركي .وقال "أن الأتراك ما عليهم إلا أن يحركوا إصبعا لتصير إمبراطوريــتهم اكــثر البــلدان ثراء ولكنهم لا يحركون ذلك الاصبع، انهم يدخنون ويرتاحون"[3] ويعارض ذلك السبات بجمال وطبيعية وروعة جغرافية البلدان التي زارها وصفات تلك الشعوب التي التقاها وتنامي رغبتها في التخلص من المحتل "المسلم" والهيمنة التركية ..وهي مشكلة كانت أوربا تدرسها ومداها الدرامي قبل وبعد الحروب النابليونية .

ونــرى أن لامــرتين قد اهتم بالمشكلة الاقتصادية والتي يراها نفس المشكلة في بلاده والتي دعاها لإيجاد حل لها بالانطلاق عبر الحدود إلى ارض جديدة و أفاق جديدة.

ويطرح كتاب لامرتين الكثير من المشكلات مؤكداً على مشاكل البلقان المسيحية وعلى الأهمية السياسية والوطنية بل الدولية للمشاكل التي رآها في كل مرحلة من مراحل رحلته .

ولــم يكن انهيار السيادة التركية في الشرق الأوسط فقط بل في ارمينيا ولبنان والعربية السعودية (كما نسميها اليوم) وكل الساحل الأفريقي في مصر حيث حاول محمد على باشا التمرد عــلى السيادة العثمانية ولكن الضربة التي تلقاها إبراهيم باشا في معركة "نوارين " البحرية تحت هجوم الأساطيل الروسية والفرنسية والإنجليزية قد فصلت الفروع عن الشجرة

---

1 -رحلة إلى الشرق ،جيرارادي نرفال .(1927)منشورات شوزيفيل ص14

2 -كاتب "رحلة إلى الشرق "لامرتين ص189

3- المصدر السابق ص 253.

ونـــادى لامارتين وبوعي تام ان على أوربا أن تسد وتملا الفراغ السياسي الكبير الذي خـــلقه الســـبات التركي وسببه تمزق أوصال الإمبراطورية العثمانية. وبقدرة الدبلوماسي وذكاء الأديـــب أطـــلق ذلك النداء إلى الدولة الأوربية على شكل تساؤلات حول أطماع ومصالح روسيا وإنجلـــترا والنمســـا وفرنسا في ملء ذلك الفراغ ،ولانه كان خائفا من نشوب حروب بسبب تلك الأطمـــاع اقترح حلا يقول-"يجب علينا أن نتفق وان نتقاسم كل ذلك تحت وصاية أوربا من اجل حماية الجنس البشري ولكي ينضج وتنمو حضارته وتنتشر"[1] وهو يؤكد على ان الحرب لن تخلف سوى الدمار والخراب والمزيد من الدماء وتظل النتيجة هي هي ويؤكد على ضرورة عقد مؤتمر لـــلدول الأوربية ذات الحدود والمصالح مع الإمبراطورية العثمانية والبحر المتوسط مع ضرورة إعلان عدم التدخل في الشؤون الداخلية لتركيا ،لكي يتدارسوا إقامة محميات أو مستوطنات على الطريقة القديمة وإنشاء مدن وموانى مفتوحة حرة ،غير خاضعة لقوانين تعسفية أو قمعية من قبل أمـــراء أو قـــبائل وحيث يمكن تكريس حق الملكية والتنقل وهو ما يحتاجه الجميع في كل مكان "وسوف يتمتعون بحرية التجارة والصناعة وكل ذلك تحت حماية الدول الأوربية ، وتقوم علاقات تجاريـــة حـــرة بيـــن تـــلك المدن التي ستصبح بؤرة جذب للحضارة مما يقارب بين تلك المدن والقرى[2].

إنهـــا دعـــوة للاســـتعمار ،لا بـــل دســـتور له وكما أكدت ذلك تعليقات قدمها ((لويس جويـــو))في مقالة حول الكتاب ألقاها في الذكرى المئوية لتلك الزيارة إلى الشرق وتم نشرها في كتاب جمع كل ما كتب وقيل في ذلك العيد المئوي من منشورات "فلاماريون ".

يقـــول لامـــارتين "هـــذه الأجناس في الأمم والقبائل ذوو عادات وعقائد متنوعة يمكننا تجميعهم حول بعض المصالح وإجبارهم في ظل حلف مشترك تحت الحماية الأوربية مما يجعلهم يتعاونون على العيش المشترك في مجتمعات متحضرة حيث تجمعهم المصالح وقوة العادات[3] أما بالنسبة لتركيا فان حكامها هم المسؤولون عما ستؤول إليها الأمور ،بسبب إداراتهم الخاطئة وعدم قدرتهم على حكم شعوب مثل الشعوب الأوربية .ولكنه يعود ويؤكد على انه "إذا كانت تلك الخطة التي يقترحها على الدول الأوربية سوف تؤدي إلى العنف ويتخلون عن تلك المناطق الهامة فأنني

---

1 - المصدر السابق ص 253.

2 -المصدر السابق صـــ256

3 -المصدر السابق صـــ257

3- المصدر السابق صـــ258

سوف اعتبرها جريمة[3] يواصل قوله بأنه "يجب علينا إنقاذ الأتراك كجنس وكقومية رغما عنهم وضدهم ..وسوف يقال لنا بأي حق ؟"

أقول لهم: بحق الإنسانية والحضارة ،وليس بحق القوة .فهدف أوربا متحدة يحافظ ويعمل على تحضير العنصر الإنساني له والقدرة دونما شك على توحيد قدر أسيا"

إنها دعوة صريحة لاستعباد شعوب العالم وذلك ليس لانه يود أن يرسل رسل الحضارة خوف على شعوب تلك المنطلقة ولكن لان فرنسا الناهضة وراس مالها المتطور بدا يبحث عن أسواق وعن مواد خام لنهضتها الصناعية ومراكز عمل لكوادرها المتزامنة القدرة ،ولسوف تكون فرنسا أول من يلبي نداء لامارتين ولو بعد حين. و قد استجابت فرنسا لنداءات وأفكار لامارتين ولم تؤثر الهزائم النابليونية في الاستمرار في تحقيق احلامها الاستعمارية. و لقد برهن كتاب "رحلة إلى الشرق "على ما يمكن أن يكون عليه تأثير الأدب أن سلباً و إيجابا ومستجيبا لمصالح اقتصاديات الأنظمة .

الخاتمة ..

ورغم اهتمامات لامارتين السياسية فقد قدم نتاجين هامين في أواخر حياته يمكن أضافتهما إلى رصيد الرومنطيقية الغنائية هما "جوسلين " و "سقوط ملاك " وكأنهما البداية والنهاية لملحمة الإنسان المعذب ومصيره المأساوي كما انهما يقدمان للقارى صورة لمفهوم الشاعر القائل بان الإنسان يصنع قدره وقيمته بنفسه ويستطيع أن ينتزع الشر من نفسه وهو يتوجه إلى الله سبب أساس الوجود الإنساني واليه تنتهي مسيرة الخليقة كلها. وتقدم لنا "جوسلين" و "سقوط ملاك " أحزانا هائلة تغلفها قوى لا مبررة وتضحيات بالحب والسعادة مدللة على التغير الهائل في موقف شاعر "التأملات "ومع ذلك ففيهما صفحات مترعة بالجمال .وفكرة النتاجين الأساسية أن طريق العذاب هو السبيل الوحيد إلى الوصول إلى مشارف السماء وهي الفكرة المسيحية المعروفة والتي جسدتها تضحية المسيح وعذاباته ثم موته في سبيل الإنسانية .أن تلك الفكرة كانت دائما هاجس الشاعر وفي نظره هي طريق الخلاص والتطهر وكل ذلك في رأيه جمال وتناسق مع القبح والشر يوجدان فقط في العقل الذي لا يفكر والعين التي لاترى " ولا يمكن التغني إلا بنشيد الأمل يفرغ فيه أحزانه ومعاناته. وهو يجسد كل ذلك في آبيات جميلة تدفعنا ونحن نقراها الى الحلم "بانهار الذهب"، وليس لانه اخترع ذلك الوصف وانما لان القصيدة تدفعنا دفعاً لتصور ذلك.. فالإنسانية في نظره هي العالم الكلي الذي يحمله اللانهائي السائل على سطحه والخليقة كلها تسبح كما سفينة نوح في مياه الإله .وتذكرنا قصيدة "النجوم وهي إحدى قصائد

الـــتأملات بان الليل يمضي في الفضاء الكبير حيث تسبح العوالم في سكون حاملة معها الإنسانية والخليقة كلها نحو مرفأ " مجهول يتقدم في جوف مجهول يتقدم دوما في جوف الليل تحيطها أنات صامتة" .

أن ذلك اللامرتين الذي ضحى بالشعر وكل ذلك الجمال في سبيل السياسة قد اعلن ذلك فـــي رســـالة أرســـلها إلى "هوجو"في الأول من يونية (1831)بقوله "أن اللحظة كبيرة جدا "لكي أضحى ببعض الساعات اكتب أشعارا .هناك صوت يقول لي، أن ذلك الزمن لم يعد زمن الراحة والتأمل وفراغات الأحلام الأفلاطونية "

وصـــدق الـــناقد "سانت بوف"عندما تعجب كيف استطاع أن يمضى قدماً دون أن ينهار ويقع ؟ لان لامرتين الحقيقي يخلط العواطف الفردية والظروف السياسية. ويفضل الناقد "لامرتين " الشـــاعر المسيحي الذي يبحث ويتشكك ويدفع بقرائه إلى تلك التأملات الحقيقية وذلك ألماوراء الديني .

وأنـــا أقـــول أن "لامرتين "الذي لقبوه بشاعر الماء ليس إلا موجة تتوق للذوبان بأمواج المحيط لترتفع رمزا لتلك اللوعة التي يحس بها الإنسان الذي يتخبط في أتون الشك .

المراجع :

1. تـــاريخ الأدب الفرنســـي ،ج.لانسون .أعاد كتابته وإضافة دراسات جديدة للفترة بين (1850و 1950)الكاتب بول تروفو .
2. "هوجو"بقلم ب-يتيم ،الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر .باريس ولا يمزج (1908).
3. لانسون .تاريخ الأدب ،الطبعة الثامنة صـــ1921 .
4. ت.موريه ،التاريخ يقدمه المسرح (1805).
5. ج.مارلية ،صورة للأدب الفرنسي منذ 1800-1983.
6. ف.بالدن بيرجيه ،دراسات في التاريخ .(1907-1910)
7. شارل بودلير ،الرومنطيقية (1868)
8. تاريخ الأدب الفرنسي ،لانسون ،منشورات مكتبة هاشيت .
9. لقـــاء جوته مع لاكرمان :حوار حول الرومنطيقية موسوعة لاروس الأدبية (القرن الثامن عشر والتاسع عشر)
10. كوليردج -سيرة ذاتية (1820)
11. مسرحية كروموبل (1827)فيكتور هوجو

12. لامارتين .مجموعة دراسات قام بتحضيرها "بول فياينكس "بمناسبة مرور مائة عام على "رحلة إلى الشرق)منشورات فلاماريون (1971).
13. تاريخ الأدب "الفرنسي في القرنين التاسع العشر والعشرين لمجموعة الكتاب بإشراف ب-برونيل .منشورات بوردا (1996)
14. دواويـــن الشـــعر الفرنسي من (1795الى اليوم)بإشراف "دومينيك رانسيه "منشورات ناتان (1992)
15. تـــاريخ أخر للأدب الفرنسي ."جان دورميسون"عضوا الاكاديميه الفرنسية ،(1997)،دار النشر النيل
16. سانت بوف ،الكراسة الخضراء ،تاريخ الأدب الفرنسي "هاشيت "
17. الاعترافات ،لامرتين المجموعة الشعرية الكاملة بإدارة م.ف جوتار مجموعة جاليمار (1963)
18. رحلة إلى الشرق ،لامارتين -أربعة أجزاء (1835،مشورات شارل جوسلين)
19. " رحلة إلى الشرق" ،جيرار دونرفال (1927)منشورات شوزيفيل .
20. الملخص السياسي لرحلة إلى الشرق "،لامارتين منشورات جوسلين .ظهر في مجموعة الاعمال الكاملة للامرتين ،جوسلين فورن (1842).